أصوات الذلاقة في البحث اللُّغويّ

د. عليّ حسن مزبان

مقدمة:

على الرغم من وفرة الدراسات الصوتية عند العرب قديماً وحديثاً، ووفرتها عند الباحثين الأوربيين من مستشرقين وغيرهم، فإنّنا نلمس أن الدراسة الصوتية في العربية لا تزال تحتاج إلى جهود أكثر دقةً وأوسع بذلاً لتؤتي للباحث المعاصر والمتتبع لأمور اللغات في عصرنا الحاضر الشيء الجديد، أو لترجع في الأقل ما يكاد يندثر في النظرات والاتجاهات والآراء التي مرَّ بها الباحث العربي من غير روّية أو استطالة تفكير.

وقد كتب عدد من الأوربيين في مجال الصوتيات أذكر منهم (فندريس) في كتابه (اللغة) وقد عقد موازنات كثيرة بين لغات متنوعة فأبرز جوانب اتفاق واختلاف في المباحث الصوتية، ومثله صنع (نولدكه) في (الساميات)، وإسرائيل ولفنسون في (تأريخ اللغات السامية) وقد أفاد الباحثون المعاصرون من هذه الجهود في كتاباتهم مثل الدكتور إبراهيم أنيس، والدكتور تمام حسان، والدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور علي عبد الواحد وافي وغيرهم.

<u>أصوات الذلاقة عند القدماء:</u>

أوّل من درس الحروف دراسة صوتية ووضع لها مجاميع وأحيازاً ومدارج هو إمام العربية الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175هـ) في كتابه (العين)، وقد سماها الأقدمون (الأحرف المذلقة) وهي ستة عندهم (ف، ب، م، ر، ل، ن) يقابلها في الإنكليزية (f, b, m, r, l, n) وقد تابع الأزهري (370هـ) الخليل في الكلام على الأحرف المذلقة بقوله "الحروف الذُلق: الراء واللام والنون سميت ذلقاً، لأن مخارجها من طرف اللسان، وذلق كل شيء وذولقه طرفه"[1]، ونستطيع أن نقول أنّ ابن سيده ميّز بين أصوات الشفة وأصوات الذلاقة ثم أطلق عليها مصطلح (الحروف المذلقة) ليصبح التمييز بين مخارج هذه المجموعة من تلك، بقوله، حروف الذلاقة ستة الراء واللام والنون والفاء والباء والميم؛ بسبب أنه يعتمد عليها بذلق اللسان وهو في الصفة والخصائص التعبيرية واللسانية ولذلك يكون ما جاء عند كثير من صدره وطرفه، وقيل: هي حروف طرف اللسان والشفة وهي الحروف الذُلق، الواحد منها أذلق ثلاثة منها ذولقية، وهي الراء واللام والنون وثلاثة شفوية، وهي الفاء والباء والميم وإنما سميت هذه الحروف ذلقاً؛ لأن الذلاقة في النطق إنما هي بطرف أسلة اللسان والشفتين وهما مدرجتا هذه الحروف الستة"[2].

copy from www.aladab.uotripoli.edu.ly

أقول: إنّ هذا التفسير على الرغم من صحته في أغلبه إلا أنه يحتاج إلى الدقة في تحديد المجموعتين وفي صحة ما يطلق عليهما عند الحديث عن صفتهما وخصائصهما. فأمّا كون الأولى (أحرف شفة) فلأنها تنزلق على الشفة، والشفة موطن إخراجها، وأمّا الثانية فلأنها تنزلق على طرف اللسان فأصل إطلاق مصطلح (الذلاقة) على هذه المجموعة الأخيرة ثم انسحب على المجموعتين، ولكن التمييز الدقيق اقتضى تسمية الحروف الستة بـ(الحروف المذلقة) ثم تميّزت كلّ مجموعة منها بما عرفت به مما ذكرنا، قال أبو البركات "والمذلقة ستة أحرف: اللام والنون والراء والميم والباء والفاء ويجمعها (فرمن لب) والمصمتة ما عدا هذه الستة"[3].

ومصطلح الأصوات المذلقة يصدق على هذه الأحرف الستة لما وصفنا وذلك أنها تميزت بصفات لم تتميز بها سائر أصوات اللغة العربية ولذلك كان اصطلاح (الأصوات المصمتة)[4] على الأصوات غير المذلقة مخالفاً له في الصفة والسمة فالمذلقة أخفّ الحروف وأسهلها تحركاً وأوضح تفاعلاً بغيرها وأيسرها نطقاً على اللسان لذلك قلّ أن تجد لفظاً يزيد على الثلاثة خالياً من الذلاقة أو في شيء منها ولذلك امتزجت مع الحروف المصمتة في بناء الكلمة الواحدة لتكون معادلاً رياضياً لجريان الأصوات على اللسان.

ومن هنا كان مذهب الدكتور صبحي الصالح في أنه لا يجوز لنا الخلط بين الأحرف الذلقية مخرجاً، والمذلقة صفةً، فالذلقية لا تخرج إلا من ذلق اللسان، أما المذلقة فمنها ما يخرج من ذلق اللسان كالراء واللام والميم ومنها ما يخرج من ذلق الشفة وهي الفاء والباء والميم ففي صفة الذلاقة شمول وعموم وفي مخرج الذلاقة تضييق وتحديد والاتفاق في الاسم لا يوقع في اللبس عند التفرقة بين الصفة والمخرج[5] أما المصمتة فهي ضد المذلقة ويصعب على اللسان النطق بها وسميّت بهذا الاسم؛ لأنّها أصمتت أي منعت أن تختص ببناء كلمة في لغة العرب إذا كثرت حروفها فوق الثلاثة كما فسّرها أبو البركات[6].

وقد نقل ابن منظور في صفة حروف الذلاقة وسائر أصوات اللغة عن ابن جنّي وهو كلام الخليل في مقدمة العين قوله "قال ابن جنّي وفي هذه الحروف الستة سر ظريف ينتفع به في اللغة، وذلك أنه متى رأيت اسماً رباعياً أو خماسياً غير ذي زوائد فلا بُدّ فيه من حرف من هذه الستة أو حرفين وربما كان ثلاثة وذلك نحو: جعفر فيه الراء والفاء، وسلهب فيه اللام والباء، وسفرجل فيه الفاء والراء واللام وفرزدق فيه الفاء والراء، وقرطعب فيه الراء والباء وهكذا عامة في هذا الباب. فمتى وجدت كلمة رباعية أو خماسية معراة من بعض هذه الأحرف الستة فأقضي بأنه دخيل في كلام العرب وليس منه ولذلك سميّت الحروف غير هذه الستة: المصمتة أي صمت عنها أن يُبنى منها كلمة رباعية أو خماسية معرّاة من حروف الذلاقة"[7] وحدد الخليل في الرباعي من الألفاظ ما يقرب من عشر كلمات خلت من أحرف الشفة أو الذلاقة وحكم بأنها "جُنى شواذ"[8] وأورد من تلك الكلمات الرباعية "العسجد، والقسطوس،

copy from www.dlibrary.edu.ly

والقداحس، والدعشوقة، والدهدعة والزهزقة" وعاد في موضع آخر فقال "وليس في كلام العرب دعشوقة ولا جلاهق ولا...الخ" ممّا يدلّ على أن أمثلة هذه الكلمات الشواذّ مولدة أو دخيلة.

وتأكيد هذه الظاهرة في كلام العرب يؤخذ من كلام الخليل أيضاً حين سأله الليث "كيف تكون الكلمة المولدة المبتدعة غير مشوبة بشيء من هذه الحروف؟ فقال نحو "الكشعج والخضعج، والكشعطج، وأشباههن فهذه مولدات، لا تجوز في كلام العرب لأنه ليس فيهن شيء من حروف الذلق والشفوية فلا تقبلن منها شيئاً وإن أشبه لفظهم وتأليفهم فإنَّ النحارير منهم ربما أُدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب إرادة اللبس والتعنت"[9] وفي هذا الموضع يؤكد الخليل ما سبق أن أشرنا اليه من كلام ابن جنّي على الرباعي والخماسي من كلام العرب وقد كان ابن جنّي معتمداً فيه على الخليل.

إنّ هذه الظاهرة الصوتية لهذه المجموعات من الحروف تفتقر إلى مثلها سائر أصوات العربية وهي ظاهرة لا تعطي ميزة لهذا الصوت من المجموعة من الآخر بل إن أية مفردة في العربية زادت أصولها على ثلاثة أحرف لا بُدَّ لها من أن تكون ذات حرف أو حرفين أو ثلاثة من الحروف المذلقة الستة فضلاً عن أنّ وجود أحد هذه الأحرف في الكلمة الرباعية والخماسية يعني فصاحة هذه الكلمة وأصالتها في بناء العربية وامتناع وقوع الشك في صحتها، فإذا خلت مادة الكلمة الرباعية أو الخماسية من واحد من هذه الأحرف تسرّب الشكّ إلى أصالة الكلمة وحكم عليها بأنها دخيلة أو مولّدة مبتدعة.

استعمال هذه الأحرف:

إذا تتبعنا استعمال هذه الأحرف في بناء الكلمة العربية وجدنا صفة كثرة دورانها على اللسان وسهولتها في النطق وكثرة دخولها في أبنية الكلم العربية سواء كانت في بناء الثلاثي أم غيره، أم في الحروف فهو أمر يلمسه كل دارس لأبنية العربية وأصواتها.

إن معظم الحروف والأدوات الاستفهامية، والنافية والشرطية وغيرها تتألف في الأقل من صوت من أصوات الأحرف المذلقة مثل "في، عن، من، إلى على الباء،الواو، لولا، لوما، أما، هلّا، هل، لا، كيف، أنّى، أيّان، ما، لن، لم، لماّ أين، أن ليت، لعلّ، لكن، ليس، لام الأمر، لام التعليل، فاء السببية، واو المعية، ثم واو العطف فاء العطف، بل، بلى، نعم، أجل...الخ.

تشير هذه الظاهرة الصوتية إلى مسألة حرية بالتأمل، هي العلة في جعل هذه الأصوات هي الأسبق في تكوين هذه الأدوات وتركيبها وتأليفها من غيرها من الحروف المصمتة...لمَ كانت هذه الحروف دون غيرها أساساً في تأليف الأدوات التي يكثر دورانها في الكلام في الاستفهام والجواب والتعجب والشرط والنفي والاستغاثة والندبة؟ بل دخلت في تركيب جملة من المهمات الأخرى كالأسماء الموصولة: الذي

copy from www.aladab.zapniu.edu.ly

التي، اللذان، اللذين- أل، من، ما، والضمائر: أنت، أنا، أنتم، هو هم، هن، هما، أنتما...الخ.

سؤال ينبغي الوقوف عنده، وفي التفتيش عن جوابه نجد أن هذه الأصوات نفسها هي الجواب، وذلك لأنها أخفّ الأصوات وأيسرها نطقاً وأكثرها سهولةً على اللسان، ليس في لسان العرب حسب، بل في جميع اللغات العالمية، فالأصوات (ب ف، م) هي أول الأصوات التي يطلقها الطفل وهو في مراحل نموه الأولى، وأطفال العالم جميعاً يطلقون (بابا، ماما) وغيرها من الكلمات التي تدخل في تركيبها حروف الشفة[10]، كما يمكن للطفل أن يطلق ألفاظاً أخرى تتكرّر فيها حروف الشفة من أشيائه الضرورية مثل (ممه) لقنينة الحليب و(ببه) للخبز و(مية) للماء و(ننا) لأي شيء يريده، وقد يبدو في بعض الأصوات التي يطلقها الطفل في مراحل نموه الأولى ابتعادٌ عن حروف الذلاقة والشفة كالدال في (دده) أو (دادا) لأنه من الأصوات النطقية ومخرجه بعيد من مخرج الشفة فضلاً عن أنه أقرب في نطق الطفل من حروف الذلاقة (ر، ل، ن) لأنه ينطق الدال من طرف اللسان كما ينطق اللام أو الراء. وهذه الصورة من مراحل نطق الطفل تفسر لنا سبب وقوع الأطفال في تصويت بعض الحروف في مطلع حياتهم اللغوية في الأخطاء الكثيرة الواضحة، فقد يلفظ الطفل (صوت الكاف) اللهوية (تاء) فيقول: "تتاب" في "كتاب"[11] ويلفظ صوت الباء (B) باء (P) والعين همزة... وهكذا.

وربما أدخل (الباء) وهو الحرف الشفوي الميسور على لسانه في كل لفظة يتلفظ بها فيقول مثلاً (بادو) يريد (أحمد) أو (باب) ويريد (كتاب) أو (باسي) ويريد (كرسي)" وهذا مظهر من مظاهر ما يسميه علماء النفس بـ(مقاومة القديم للجديد أو آثار العادات اللغوية"[12].

ممّا تقدم، نلاحظ أنّ لأصوات الشفة، وأصوات الذلاقة مكاناً متقدماً من بين الأصوات في نشأة لغة الإنسان الأولى، في لغات العالم، والعربية إحدى هذه اللغات الحية التي استأثرت أصوات الذلاقة فيها بالمكان المتميز الظاهر.

أصوات الذلاقة في الساميات:

وسواء أكانت العربية أصل الساميات أم واحدة منها فإنَّ مجموعة اللغات السامية استأثرت بظاهرة تميز أصوات الذلاقة فيها فلم تخلُ منها أو من بعضها لغة سامية –معروفة كالبابلية الآشورية- والآرامية والحبشية والعبرية ولغات جنوب الجزيرة بل دخلت في تأليف مفرداتها وأثبتت الدراسات المقارنة أن الضمائر وأسماء الإشارة ومفردات أعضاء الجسم وجمهرة من الأفعال والأسماء والحروف تتفق في أبنيتها ونلاحظ من بينها أن الحروف المذلقة تتخذ مواقعها في أماكن واحدة منها جميعاً وهذه جملة من الألفاظ:

1- في العربية (أب) وفي الآشورية والبابلية (أبو) وفي العبرية (أب) وفي السريانية (أبا) وفي لغات جنوب الجزيرة (أب).

copy from www.dlaadab.zapinu.edu.ly

2- في العربية (ابن) وفي الآشورية البابلية (بنو) وفي العبرية (بن وبني) وفي السريانية: (برا وبورا) وفي لغات جنوب الجزيرة (بن).
3- في العربية (أُذن) وفي الآشورية البابلية (أزنو) وفي العبرية (أوزين) وفي السريانية (أودنا) وفي لغات جنوب الجزيرة (ايزن).
4- في العربية (اثنان) وفي الآشورية البابلية (شنا) وفي العبرية (شنايم) وفي السريانية (ترين) وفي لغات جنوب الجزيرة (سنيت).
5- في العربية (أرض) وفي الآشورية البابلية (أرضو) وفي العبرية (أريض) وفي السريانية (أرعا وأرفا) وفي لغات جنوب الجزيرة (أرض).
6- في العربية (أربع) وفي الآشورية البابلية (أربعو) وفي العبرية (أربع) وكذا في السريانية ولغات جنوب الجزيرة .
7- في العربية (اسم) وفي الآشورية البابلية (شومو) وفي العبرية (شم) وفي السريانية (شما) وفي لغات جنوب الجزيرة (سم).
8- في العربية (أم) وفي الآشورية البابلية (أمو) وفي العبرية (أم) وفي السريانية (أيما) وفي لغات جنوب الجزيرة (أم).
9- في العربية (أنف) وفي الآشورية البابلية (أبو) وفي العبرية (أف) وفي السريانية (أبابا) وفي لغات جنوب الجزيرة (أنف).
10- في العربية (جمل) وفي الآشورية البابلية (جملو) وفي العبرية (جمل) وفي السريانية (جملا) وفي لغات جنوب الجزيرة (جمل).
11- في العربية (نفس) وفي الآشورية البابلية (نفشتو) وفي العبرية (نفش) وفي السريانية (نفشا) وفي لغات جنوب الجزيرة (نفس).
12- في العربية (اللب) وفي الآشورية البابلية (لبو) وفي العبرية (لب) وفي السريانية (لبا) وفي لغات الجنوب (لب)[13].

والملاحظة الجديرة بالاهتمام هنا هي أن الأحرف الستة (ر، ل، ن، ف، ب م) التي وردت في مجموعة هذه اللغات داخلة في تأليف كلمات ذات دلالات واحدة لم تتغير من لغة إلى أخرى بل اتخذت مواقعها في التأليف وأعطيت قيمتها الصوتية الواحدة إلا ما وجدناه في لفظة (أنف) فقد ذهبت النون من تأليف الكلمة في الآشورية،وأُبدلت الباء بالفاء وهو إبدال مطّرد في أصوات الذلاقة كذلك ذهبت النون أيضاً من تأليف الكلمة العبرية والسريانية وأُبدلت الفاء باءً في الأخيرة، ولعلَّ هذه التغيرات جاءت من تأثير بعضها في بعض.

أما لغات جنوب الجزيرة ويعني بها الدارسون لغات اليمن القديمة [14] (القتبانية، السبئية، المعينية، الحضرمية) وهي لغات انقرضت بعد أن سيطرت عربية الشمال وأصبح لها السيادة المطلقة على الجزيرة وخارجها فهي أشدُّ أسراً بالعربية وأكثر إسلافاً معها.

copy from www.alqadb.alaasmaryauedu.ly

والذي يستوقفنا من ظاهرة سقوط النون في تأليف بعض الكلمات غير العربية في الساميات أنَّ بعض الضمائر التي تشترك النون في تأليفها تخلو من النون في بعض الساميات ويحل التضعيف بدلها فالضمير (أنت للمخاطب أو المخاطبة تشترك في ابقاء النون العربية والحبشية وانْ كانت الحبشية تجعله هكذا (أنتا) وللمخاطبة (أنت) (anti) كالعربية إلا أن النون تسقط من الآرامية (أتا) (atta) والعبرية (I7GN) والبابلية والآشورية (أتا) (ATTA). وللمخاطبة المؤنثة على التوالي (أت atti وأت atti وأت أما في الحبشة فهي كالعربية (أنت)[15].

ويبدو لي ان العلة في سقوط النون من تأليف ضمير المخاطب في بعض الساميات هو أن النون فيها دلالة على الذات فينبغي أن تدخل في ضمير المتكلمين لا ضمير المخاطب ولعلّ دخولها في العربية أو الحبشية جاء طوراً من أطوارها المغرقة في تاريخ نضجها، وربما كان من أثر الحبشية في العربية أو العكس.

أما أحقيّة كون صوت النون داخلاً في تأليف الضمائر الدالة على الذات فالضميران (نحن) و(أنا) فإنَّهما أحقّ بالنون من غيرهما ولذلك اشتركت الساميات في (نحن) ففي العربية (نحن) وفي الحبشية (نحنا) nehna وفي البابلية والآشورية – nini aninu وفي العبرية nahna وفي الآرامية ennahnanhnan في حين سقطت النون كذلك من الضمرين في (أنتم) و(أنتي) في سائر الساميات إلا العربية والحبشية[16].

ولذا كانت النون سائغة في الاستعمال حين دخلت قبل ياء المتكلم لتقي الفعل والأحرف المشبهة بالفعل من الكسر (نون الوقاية) في مثل قولنا:

(إنني، سألني، يعلمني) وذلك لصلتها القوية بذات المتكلم والدلالة عليه ولولا ذلك لاستعيض عنها بالميم أو الباء أو أيّ صوت آخر.

والذي حدانا للتحدث عن النون هو شذوذ بعض الضمائر في تأليف أصواتها لأنها لم تدخل في تأليفها في بعض الساميات.

ظاهرة التعاقب والإبدال في أصوات الذلاقة:

إذا استقرينا كتب الإبدال والقلب نجد ظاهرة التعاقب والإبدال ملموسةً واضحةً، فالملاحظ أنَّ الإبدال يقع بين (النون واللام) مثل: هتن المطر وهتل والسدون والسدول وهو ما جُلّل به الهودج[17] من الثياب والكتل والكتن وهو لزوق الوسخ بالشيء واللعاعة والنعاعة وهو بقل ناعم في أوّل طلوعه، والبعير الرفن والرفل إذا كان طويل الذنب. وهكذا، وهذا الإبدال الكثير بين صوتي اللام والنون لم يكن مقصوراً على اللغة الفصيحة المتوارثة بل تعدّاها إلى لسان العامة من الناس فبعض عامّة أهل العراق يقول في (نظم) (لظم) ومن الكثير الدارج في القديم والحديث أنهم يقولون في (اسماعيل، اسماعين) وفي (جبريل، جبرين) وقد لحظ ابن جنّي في كتابه (الخصائص) هذه التبدلات بين اللام والنون فحاول أن يجد مخرجاً لمجموعة منها، فيجعل بعضها أصلاً ويجعل الثانية مبدلة منها أو يجعل اللفظي

copy from www.aladab.zu.edu.ly

أصلين كما ترى في قوله في (هتلت السماء وهتنت) هما أصلان ألا تراهما متساويين في التصرف: سحائب هتن وهتل[18] وقال في (بل وبن) "ما قام زيد بل عمرو" (وبن عمرو) بنون مبدلة من اللام، ألا ترى إلى كثرة استعمال (بل) وقلة استعمال (بن) والحكم على الأكثر لا على الأقل هذا هو الظاهر في أمره، ولست مع هذا وأدفع ان يكون (بن) لغة قائمة برأسها" وقال في: (خامل وخامن) النون بدل من اللام لأنه الأكثر[19].

ومن ذلك أيضاً الإبدال بين (الباء والميم) وهما حرفان شفويان وهو إبدال كثير جداً وهذه جملة من الألفاظ: "بنات بخر ومخر، با اسمك ما اسمك، أربد وأرمد وهو لون الغبرة، ظأب وظأم وهو صياح التيس، وعشمة وعشبة للكبير اليابس وأربى عليه وأرمى عليه والرجبة والرجمة النخلة الطويلة، وأومى إليه وأوبى إليه، واقتبع واقتمع، قال أبو مسمع هما واحد لأن الباء أخت الميم[20]. والإبدال في هذين الحرفين كثير لا يحصى، وما أوردناه أمثلة عليه وقد حاول ابن جنّي في هذا النوع من الإبدال أن يعلل بعضه فذهب في مثل قولهم "علب وعلم" العلب: الأثر، والعلم: الشق في الشفة العليا، فذاك من (علب) وهذا من (علم) والباء أخت الميم قال طرفة:

كأن علوب النسخ في دأياتها موارد من خلقاء في ظهر قردد[21]

ومن ذلك –أيضاً- الإبدال بين الباء والفاء وهما حرفان شفويان فالغرب: الدلو العظيمة وهي الغرف لأنها يغرف بها فذاك من (غرب) وهذا من (غرف)[22] وقد لاحظنا أنهما تعاقبا في بعض المفردات في اللغات السامية كما في الآرامية ومثل ذلك إبدال الميم من النون وهما صوتان من الأصوات المذلقة، نقل الأصمعي أنهم يقولون للحيّة "أيم" و"أين" وأنهم يقولون الغيم: الغين، وامتقع لونه وانتقع إذا تغير، ويقولون: تمدلت بالمنديل وتندلت[23] والإبدال بين هذين الحرفين كثير في كلام العرب، على الرغم من أنَّ (النون) حرف ذلقي، والميم حرف شفوي في مخرجهما ولكنهما حرفان مذلقان من المجموعة الستة.

ويكون الإبدال بين الفاء والميم وهما حرفان شفويان، كما يقولون:جلف القشر وجلمه: يقول ابن جنّي: "هما متقاربان" لفظان متقاربان معنى وذاك من (ج ل ف) وهذا من (ج ل م)[24].

ويكثر التبدل في الحرفين (ر، ل) فيتعاقبان كثيراً كالألفاظ (أمرط وأملط) إذا لم يكن في السهم ريش[25] و(متقطر ومتقطل) للجذع و(لتد، رتد) و(ملدم ومردم) و"هدل الحمام وهدر" إلى غير ذلك من صور الإبدال بينهما، وهذان الحرفان من أحرف الذلاقة.

وهذه الابدالات في الواقع ليست مقصورة على نفسها كلُّ مجموعة على حدة وليست هي أيضاً مقصورة على كونها من الحروف المذلقة (الشفوية والذلقية) بل تعدت نطاقها إلى الحروف المصمتة فتفاعلت معها الكثير منها فالفاء وهو حرف

copy from www.aladab.tripoli.edu.ly

شفوي أبدل من (الثاء) وهو حرف لثوي، فقيل "فوم وثوم" وقيل "ثم وفم" وقيل "الأثافي والأفافي"[26] واختلفت تميم عن الحجاز في هذين الصوتين فالثاء عند تميم تقابلها الفاء عند الحجاز كما في (لثام لفام) مثلاً، والذي يستقصي صور القلب والإبدال في كتاب ابن السكيت بين الحروف المذلقة وسائر الحروف المصمتة يجد أنَّ الفاء أبدلت من الكاف[27] وان اللام أبدلت من الدال[28] في حين أن الكاف حرف لهوي، والدال حرف نطعي، وما ذلك الا لأن هذه الحروف أكثر أصوات العربية انسجاماً وتفاعلاً مع سائرها.

ولاحظ ابن جنّي أنه قد يتعاقب أكثر من صوتين من حروف الذلاقة فأورد لذلك قولهم: (جبل) و(جبن) و(جبر) وقال لتقاربهما في موضع واحد، وهو الالتئام والتماسك، منه الجبل لشدته وقوته وجبن إذا استمسك وتوقف وتجمَّع ومنه جبرت العظم ونحوه أيّ قويته[29] وقد يحدث لبعض هذه الأصوات أن تقلب في الكلمة الواحدة قلباً مكانياً فيكون هذا الصوت مكان ذاك، ومسوغ ذلك هو اشتراكهما في الحيز والمخرج كما ترى في قولهم "العمري" "رعملي"[30].
وقد تكلمت تميم بالثانية واختصت بالأولى الحجاز [31].

ويتضح من بعض تألف أصوات الذلاقة أنَّ حروف الشفة يمكن أن يحصل بينها تبدل صوتي كالفاء والباء، أو الباء والميم ولكن حروف اللسان تتنافر فلا تلتقي أحياناً في موضع كوقوع النون قبل الراء الأمر الذي حداهم إلى الحكم على (نرجس) –مثلاً- بالعجمة في حين نجد أن اللغات الأخرى سامية كانت أم آرية- أوربية تبيح لنفسها هذا الاجتماع كما ترى في (نرج) و(نرام سين) و(نروج) وغيرها.

ولم تجتمع النون واللام والنون سابقة لها ولكننا إذا قلبنا الموضع فقدّمنا اللام والراء على النون كان شيئاً طبيعياً وذلك يرجع إلى ما تتميز به من الغنة وطول الصوت الذي يقطعه صوت اللام والراء بعده فان عكست فقلت (رن) (لن) فلا صعوبة في إطالة الصوت للنون في مثل هذه الحالة واستطيع أن أقول أن أصوات الذلاقة هي من أوائل ما تولد في اللغة البشرية الأولى ثم ألحقت بها سائر أصوات اللغة الأخرى وهذا واضح في الأسماء اللاهوتية القديمة وأسماء الأشياء والمخلوقات وأسماء الأعلام وما عرفه الإنسان الأوَّل على سطح الأرض اشتراك هذه الأصوات أو بعضها في تأليف الكلمات أو المسمّيات نحو "الله، الرب، السماء الأرض، البحر، اليم، هابيل، قابيل، بابل، آشور، أور، انكيدو، الاله، نينوى إبراهيم إسماعيل، آزر، يوسف، يعقوب، داوود، هود، سليمان...الخ" كما يمكن أن نلاحظ ان هذه الأصوات كان لها النصيب الأوفر في أسماء البيئة العربية في الجزيرة مثل "مطر، سحاب، شجر، بحر، صحراء، بيداء، فدفد، مفازة، إبل، بعير، جمل، ناقة غنم، ضأن، أنس، جن، حصان، فرس، جواد، نمر، ليث، عرب، ثور، نخلة، بئر قليب، خيمة، وتد، سبب، فاصلة، سيف، رمح، مدية، سكين، أنف، فم، رأس، أذن عين، رجل، صدر، بطن، قبيلة، عشيرة، صدم، عرك، حرب، فني، سلب، سرق غزوة...الخ" وهكذا نجد

copy from www.drdab.zarnu.edu.ly

أن معظم المسميات المألوفة لدى العربي يغلب عليها أحد الحروف المذلقة أو أكثر فضلاً عن أنها تدخل في تأليف كل كلمة رباعية أو خماسية كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق.

ومن خلال هذه المكانة الواضحة لأصوات الذلاقة في اللغات نستطيع أن نقول إنَّها أوَّل الأصوات التي ألفها الإنسان الأوَّل، وبملاحظة سريعة نستعرض بها بعض مفردات من اللغات الأوربية موازنةً بالعربية نجد أن لأحرف الذلاقة مكاناً واضحاً لا يقل عن مكانها في اللغات السامية وهاك هذه الكلمات:

(Window- door- man- son- boy- girl)

(chair- sun- moon- pencil- book- woman)

وأسماء الألوان وأسماء كثيرة من الأشياء الطبيعية والمخلوقات تتردد فيها هذه الأصوات بصورة ملحوظة فإذا حاولنا مقابلتها بالعربية مثلاً رأيناها في الكثير منها متفقة في تأليف الكلمات ذات المدلول الواحد[32].

فـ(بنت) في العربية فيها الباء والنون و(girl) فيها (الراء واللام) R.l وجميعها من أصوات الذلاقة، و(ولد) في العربية فيها (الواو واللام) و(Boy) فيها (B.O) وجميعها من الأحرف الذلقية.

و(ابن) في العربية فيها (الباء والنون) ولو علمنا أن أصلها (بنو) كانت الواو –أيضاً- مضافةً إليها و(son) فيها (O.N) وهكذا يقال في كرسي و(chair) و(قمر moon) و(شمس sun) و(قلم pencil) و(كتاب book) فربما كان الاتفاق في حروف الذلاقة في لغات العالم أوضح من سائر الحروف والأصوات وفي ذلك ما فيه من الدلالة على أهمية هذه الأصوات في اللغة.

وسأحاول أن أتكلم على كل صوت من أصوات الذلاقة على انفراد وما يتعاوره من تغير أو تبدُّل وأثر ذلك في سائر أصوات اللغة في تأليف الكلام.

1- النون:

صوت مجهور، هي والراء واللام في حيز واحد مخرجها "من طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا"[33] فإذا خفيت النون في النطق خرجت الخياشيم وتشارك النون الميم في أنهما قد يشترك الفم والخياشيم في إخراجهما فتصير فيهما غنة[34].

ومعنى الغُنّة: أنها صوت في الخياشيم ولا يكون لحروف اللغة غُنّة إلا للميم والنون ولذا أطلق علماء اللغة على هذين الصوتين مصطلح (الحرف: الأغنّ) وما سواهما (غير أغنّ) والذي يسوّغ إحداث الغنة لهذين الصوتين أنّ الصوت يجري معهما في الأنف داخل الخياشيم أمّا في الفم فلا يجري وذلك أنَّ اللسان لازم لموضع الحرف[35] ولما كان الخيشوم هو أقصى الأنف وفيه تجويف لذلك سهُّل في هذا الموضع إحداث الغّنة[36].

قال أبو البركات الانباري في صفة النون هذه (مجهورة ذات غُنّة) وهي تخفي مع حروف الفم خاصّة، وتبين مع حروف الحلق عامّة. وانّما خفيت مع حروف الفم

copy from www.alqalam.edu.ly

لقربها منها وبانت مع حروف الحلق لبعدها منها[37] ونرى ان النون تظهر عند وقوعها إلى جانب حروف الحلق لما لأصوات الحلق من تأثير عام في الحروف ولبعدها عن حروف الحلق في المخرج وهذا التباعد بين أصوات أقصى الحلق وأوّله أدّى إلى أن يحتل كل صوت موقعه من غير تأثير برديفه كما أدّى إلى أن تبقى القيمة الصوتية لكل حرف ناصعة واضحة. يقول أبو البركات الانباري "وكما أن حروف اللسان لا تدغم في حروف الحلق لبعدها منها، وإنما أخفيت مع حروف الفم كما أدغمت اللام وأخواتها كقولك "من أجلك، من هنا، من خاف، من حرم زينة الله، من على من عليك"[38] فالنون في جميع ذلك ظاهرة لوقوعها قبل حروف الحلق.

ولكنها تدغم في حروف (يرملون) كما استشهدوا لذلك بـ(من لك) (من وال) و(من نؤمن) و(من رشد) و(من ماء) والمشروط في ذلك كله أن تكون النون ساكنة فأنْ لم تكن كذلك جاز الادغام أو الاظهار[39].

أما مع (الميم) فيجوز أن تظهر الغنة ويجوز إذهابها. ولقد ظهر أن العرب قد تخفي النون مع بعض حروف الحلق (كالخاء والغين) وذلك أنهم يُجرون هذين الحرفين مُجرى (القاف والكاف) ولم يجد الخليل وسيبويه والنضر[40] صحة مذهب العرب في هذا ولقد قرأ القرّاء "ولمن خاف مقام ربه جنتان" بالابانة والإخفاء[41] وعلى الرغم من أن (النون) تدغم في حروف (يرملون) وهي من الأصوات المذلقة إلا الياء فهي شجرية إلاّ أنّ أبنية العربية وقياس صيغها قد يتحكم في الإظهار والإدغام ومن هذا القبيل ما أشار إليه سيبويه في وقوع النون قبل الراء واللام ساكنة أو بعدهما فإنّ بعض الأبنية توجب إظهارها كما في "قنر" "عنل" "قال سيبويه" يظهرون النون ساكنة قبل اللام لأنه ليس في الكلام مثل (عنر، عنل)[42] وقد أشبع ابن جنّي هذه الظاهرة تفصيلاً وأورد أمثلة من الأبنية لا يجوز فيها إلاّ الإظهار مثل "عرند" على وزن "فعنل" بإظهار النون، و(هجنعل) و(عزنقصان): فعنلل وفعنلان- بالإظهار قال "وهذا- الإظهار- لابد أن يكون مظهراً ولا يجوز إدغام النون في اللام في هذه الأماكن لأنّه لو فعل ذلك لفسد الغرض وبطل المراد المعتمد ألا تراك لو أدغمت نحو هذا للزمك أنْ تقول في مثل (عرند) انه فعل، فكان –إذا- لا فرق بينه وبين: (قمد وعتل وصمد) وكذلك لو قلت في تمثيل (جخنعل) أنه (فعلل) لا لتبس ذلك بباب (سفرجل) و(فرزدق) وباب (عدبس) و(هبلع) و(عملس) وكذلك لو أدغمت مثل: (حبنطى) فقلت (فعلى) لالتبس بباب (صلخدى) و(جلعدى)[43] ومعنى ذلك أنّه على الرغم من أنّ النون في مثل هذه المواقع ينبغي إدغامها إلاّ أنها لابد من أن تظهر لأن إدغامها يؤدي إلى أن تنتقل إلى أبنية مجردة خالية من الزوائد في حين أن النون في جميع هذه الأمثلة مزيدة وليست أصلية في بناء الكلمة ولهذا لم يجز اللغويون- ومن بينهم ابن جنّي- ان يبنى مثل (جخنعل) من الفعل (دخل) لانك ستقول (فعنلل- دخنلل) فتظهر النون ساكنة قبل اللام فتقع في امتناعين الأوّل وجوب اخفائها في حين يؤدي اخفاؤها إلى الالتباس والآخر عدم وجوب ذلك [44] على أن عللا أخرى قد تدخل في

copy from www.dlaadab.uotripoli.edu.ly

تغيير صوت النون أمر إدغامه أو بقائه من غير إدغام منها ما ذكره ابن جنّي في قراءة عاصم "وقيل من راق" ببيان النون من (من) فقد رفضه ابن جنّي ووصفه "بأنه معيب في الإسماع"[45] وذلك انَّه يرى وجوب الإدغام في وقوع النون ساكنة قبل الراء وقد استشهد لوجوب الإدغام بقولهم (من رأيت) و(من راك) وتأوّل لعاصم إظهار النون –هنا- على أنه أراد التنبيه به على انفصال المبتدأ من خبره ورد هذا التأويل –أيضاً- بأنه "غير مرضيّ" ألا ترى إلى قول عديّ:

من رأيت المنون عرين أم من ذا عليه من أن يضام حفيرُ

بإدغام (نون): (من) في (راء): رأيت. ويكفي من هذا إجماع الجماعة على إدغام: (من رافق) وغيره مما تلك سبيله[46].

وما أظن أن ابن جنّي هنا قد افتعل حكاية (إجماع الجماعة) على قراءة الإدغام مع علمهم بأنها قراءة متواترة عن الرسول ﷺ وأن عاصماً كان يسكت سكتة لطيفة على النون وتبعه حفص[47] فيها وذلك- كما يبدو- أنّ القرّاء لم يجدوا في مثل هذه المواضع من اجتماع النون الساكنة بحروف (يرملون) إلاّ الإدغام فجروا على سنن واحدة وإلاّ فما أظن أنّ مسألة الإدغام والتباسها بصيغة المبالغة من (مرق، مرّاق) تخفى على مثل ابن جنّي.

ومن التغيرات التي تطرأ على صوت النون هو ما يحصل لها عند وقوعها ساكنة قبل (الباء) فأنها تقلب إلى (ميم) وذلك نحو (عمبر) و(شمباء) وأصلهما:

عنبر وشنباء[48] وتعليل ذلك يرجع إلى أنّ اجتماع صوت الميم مع الباء أخفّ من اجتماع صوت النون والباء قال ابن جنّي "ولو قيل عنبر بتصحيح النون لكان أثقل"[49].

يؤدّي النون في العربية واجبات كثيرة ليست مقصورة على ما ذكرنا من تغيراته الصوتية فقد ينوب عن (الحركة الأعرابية) كما نرى ذلك في (الأفعال الخمسة): يقومان، يقومون، تقومين. ويعطي معنى (التنكير) إذا ما لحق الاسم في حالة (التنوين) ولذلك لم يجز تنوين المضاف، لأنَّ الإضافة وضعت للتخصيص فلا يجوز اجتماع التنكير والتخصيص[50] وامتنع –أيضاً- تنوين الفعل لأمور:

أ- إنَّ الفعل عرضة للحذف والزيادة والنقص بالجزم –مثلاً- فلما كان موضعاً للنقص منه لم تلق به الزيادة فيه.

ب- إنَّ وقوع التنوين في آخر الاسم إيذان بالتمام ولما كان الفعل محتاجاً إلى الفاعل دائماً فهو –إذن- محتاج إلى ما يتممه فلا يليق التنوين به كما هي الحال في المضاف الذي هو أشدَّ أسراً بالمضاف إليه وأحوج ما يكون إليه التتميم معناه[51].

وهذه التحليلات على الرغم من كونها من بنات العقل والمنطق فأنها أقرب إلى الصِّحة.

copy from www.alqadam.jamtu.edu.ly

2- الراء:

حرف مجهور ومخرجها من مخرج النون، ولكنه أكثر دخولاً في ظهر اللسان مع انحراف إلى اللام[52]. يتميز الراء بأنه حرف مكرر، ونعني بالتكرار: تحرك طرف اللسان وارتداده سريعاً على مقدمة الفم وذلك إذا وقفنا عليه رأينا طرف اللسان يتعثر بما فيه من التكرار[53] فسمي لذلك من بين الحروف (المكرّر) وحُسِبَ في الإمالة بحرفين لا بحرف واحد. وبسبب هذا التكرار الذي أتّصف به (حرف الراء) جرى معه الصوت، قال ابن عصفور "وأما الراء فللتكرار الذي فيها وقد يتجافى اللسان بعض تجافٍ فيجري معه الصوت"[54] وهذا المكرّر الوحيد وسائر الحروف غير مكرّرة[55] والراء من الأصوات التي يسهل تلاعب اللسان والجهاز النطقي بها فيرقّق ويفخّم كما هو واضح عند القُرّاء، ولامتيازه بهذه الصفة في العربية سهل على الناطق بها أن يلغيها من كلامه مع صحة جهاز نطقه وطاقته على تبيينها ونطقها.

ولعلّ هذه الميزة في صوت الراء هي التي جعلته في بعض اللغات الأوربية يميل إلى الخفاء، ويعلل (فندريس) خفاء الراء في اللغة الفرنسية أنها اتجاه عام في لغة الفرنسيين البارسيين بقوله "إبعاد الراء من الفرنسية يبدو مطابقاً لاتجاه عام في اللغة على الأقل، فيما يخص الراء الحلقية التي تتميز بها فرنسية باريس".

واليوم نرى هذه الراء لا تحس إلا بقدر ضئيل في بعض الأوضاع، إذا جاءت بعد ساكن في نهاية الكلمة أو وقعت بين حركتين ولعلّها كانت قد اختفت من اللغة الفرنسية لولا تأثير المدرسة والكتابة التقليدية.

والراء الإنجليزية التي من أصل الأسنان في طريق الاختفاء –أيضاً- وإن كانت من مخرج آخر فكثير من الإنجليز لا ينطقونها- اليوم- وإن كانوا لا يعرفون ذلك[56]. والواضح على اللغة الانجليزية عند الأمريكان أنها تخفي الراء في الموطن الذي أشار إليه فندريس.

والمعروف في الراء العربية أنها راءان مفخمة ومرققة وأنهما مجهورتان ويشير فندريس إلى هناك في بعض اللغات راءات متعددة منها راء مهموسة فهو يقول في "R.L" ويعد في طائفة شبه الحركات – اللام والراء Lr المائعتان الأخيرة منها تدعى أحياناً – المتذبذبة- وهي تسمية أكثر دقة من الأوّل فهما ساكنان لهما نقطة تعلق محدودة في الفم وتعتمد على وضع ما للسان ويمكن أنْ تُصحب أوّلاً بذبذبات حنجرية تنتج الجهر، وهما مجهوران في أغلب الأحيان غير أنه يوجد في بعض اللغات لامات وراءات مهموسة صائتة[57] وهذه الراء المائعة التي ذكرها ترجع إلى ذبذبة الأجزاء المطاطة التي يشتمل عليها التجويف الحنكي وتردد اللسان وذبذبته.

ومن الراءات –أيضاً- "الراء الاسنانية" وهي التي تقف في أصاتتها على تذبذب طرف اللسان.

copy from www.dahlfazapr.edu.ly

والراء الحلقية هي التي تظهر عند تذبذب ظهر اللسان وهذه الراء هي المفخمة في العربية، أمّا (الراء اللهوية) التي تنتج عن تذبذب اللهاة، وهي التي يسمونها بـ(الراء الدسمة) Grassgee –بالفرنسية- فهي أقرب إلى نطق (الغين) فيها[58]. وتشيع في الإنجليزية الحديثة (الراء الأسنانية) التي يعتمد اللسان في اصاتتها على أصل الأسنان.

ممّا تقدم يبدو أن وجود أنواع من الراءات بين التفخيم والترقيق والتحوّل إلى أصوات مهموسة أو اقترابها من أصوات أخرى ليس إلا مسألة طبيعية في هذا الحرف نفسه، وذلك أنه انفرد بصفات –ربما شاركته اللام فيها أو في بعضها- كما سنرى.

ومن هنا كان صوت الراء عرضةً للعيوب اللسانية المتنوعة وهو في هذه الصفة يشبه (السين) من حروف الصفير والمهموسة في تحولة في لسان الألثغ إلى ثاء أو تاء وقد تنبه أبو عثمان الجاحظ على هذه الظاهرة الصوتية في صوت السين[59] ومثل لها بقولهم (أبو يكثوم) في أبي يكسوم وبـ(بثم الله) في بسم الله. كما تنبه على ما يقع في صوت الراء من عيوب فقال: أما اللثغة التي تقع في الراء فإن عددها يضعف على عدد لثغات اللام الذي يعرض لها أربعة أحرف. فمنهم من إذا أراد أن يقول: (عمرو) قال (عمي) فيجعل الراء ياءً. ومنهم من إذا أراد أن يقول (عمرو) قال (عمغ) فيجعل الراء غيناً، ومنهم من إذا أراد أن يقول (عمرو) قال (عمذ) فيجعل الراء ذالاً وإذا أنشد قول الشاعر:

واستبدّت مرةً واحدةً   إنّما العاجزُ من لا يَستبد

قال: واستبدتْ (مذةً) واحدة.....[60].

ويُلاحظ على هذه اللثغات التي رصدها الجاحظ أنّ اللاثغ في حرف الراء كأنه لا يستطيع أن يذبذب لسانه في إخراج هذا الصوت فيهرب لسانه إلى (الياء) وهو صوت شجري أو (الغين) وهو صوت حلقي أو (الذال) وهو صوت لثوي قريب من مخرج الراء اللاثغ للبيت إلى أربع لثغات هي (مية) واحدة، (مغة) و(مذة) و(مظة) والظاء صوت لثوي أيضاً من جنس الذال. وملاك الأمر كلّه أن وقوع اللثغ في اللسان أنما هو للتخلص من الذبذبة كما ذكرنا ومن هذه اللثغات ما كان (غيناً) وهي أشبه بلغة الباريسيين التي أشرنا إليها في كلام فندريس.

لقد جعلت الذبذبة التي يمتلكها الراء أن يتصف هذا الصوت بصفة صوتية أخرى هو امتناعه أن يدغم في اللام، قال أبو البركات "لا يجوز أن يُدغم الراء في الكلام كما يجوز أن تُدغم اللام في الراء لأن في الراء زيادة صوت وهي التكرير فلو أدغمت اللام لذهب التكرير الذي فيها بالإدغام بخلاف اللام فإنه ليس فيها تكرير يذهب بالإدغام[61].

هذا هو الأظهر في صفة هذا الحرف وهو قريب في بعض صفاته من صوت اللام.

3- اللام:

من الأصوات المجهورة وهي أشبه بالراء كما رأينا غير أنَّ الراء تختلف عنها والتكرير. مخرجها من أدنى حافة اللسان إلى منتهى طرفه، بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى مما فويق الضاحك والناب والرباعيات والثنية[62]. تدغم اللام في ثلاثة عشر حرفاً هي (ت، ث، د، ذ، س، ش، ر، ز، ط، ظ، ص، ض، ن) وهي المعروفة بالحروف الشمسية. وفي تعامل اللام مع مجموعة هذه الحروف اختلاف ودرجات فادغمها في الراء أحسن من سائرها[63] نحو "هل رأيت، ويليها إدغامها في الطاء نحو "أنل طبيباً" ثم التاء نحو "هل تعلم" ثم الدال نحو "هل دنا" ثم الصاد فالسين فالزاي ثم الثاء فالذال فالظاء ثم الضاد فالشين[64] ثم يأتي في آخرها إدغامها في النون والبيان فيها أحسن. أما إدغام النون فيها فهو موقوف عليها دون سائر الحروف[65] وكما كانت الراء ذات درجات في التصويت جعلت فيها أنواعاً منها المائعة وفي بعض اللغات لام مهموسة صائتة[66] وتتميز بأن طرف اللسان يرتفع في النطق بها حتى يعتمد على الحنك وتنخفض حواف اللسان الجانبية بطريقة تسمح للهواء أن يمر من جوانبه فيرى من هذا أن بينهما وبين الأسنانيات نقطة اشتراك. وهناك نوعان آخران من اللام المبللة، وتتميز باستعلاء الجزء الأمامي من اللسان نحو الحنك الصلب والأخرى من أقصى الحنك وفيها يتحدب الجزء الأوسط الخلفي من اللسان في شكل ملعقة من جهة الحنك الرخو، واللام التي في أقصى الحنك كانت توجد في اللاتينية وهي مستعملة في اللغات السلافية، حتى الآن[67].

وفي العربية اللام المفخمة واللام المرققة ويمكن تمثل الأولى في لفظ الجلالة (الله) والثانية في لفظه (لافتة) مثلاً – وهاتان اللامان تنطقان بالصورة نفسها في مثل Lampall في بعض اللغات الأوربية.

وقوة شبه اللام بالراء أدّى بها –أيضاً- إلى أن يقع اللسان بنفس العيوب التي تعتور اللسان في الراء، فمن اللثغات في اللام تحويلها إلى الياء كما أشار الجاحظ فيقولون "اعتييت" في "اعتليت" و"جمي بدلاً من (جمل). وآخرون يجعلون اللام كافاً "كالذي عرض لعمر أخي هلال فأنه كان إذا أراد أن يقول: ما العلة في هذا قال "مكعكة في هذا[68] واللامات في العربية كثيرة ذكرها المعجميون كالام الأمر ولام ولام اليمين ولام التعليل ولام الجر ولام الابتداء ولام الجر ولام الجحود ولام الملك ولام التوكيد واللامات التي تؤكد بها حروف المجازاة، واللام التي بمعنى (إلاّ) ولام التعجب ولام الاستغاثة ولام التعقيب ولام التعريف واللام الزائدة ولام (لقد) و(لما) المخفضة[69].

copy from www.aladab.jamiu.edu.ly

4- الميم:

صوت مجهور شفوي ينزلق على الشفة، غير أنَّ الخليل سمّاها (مطبقة) لأنّ الشفة تطبق إذا لفظ بها[70]. وفي تحديد حيّزها قال الخليل: "والميم من الحروف الصحاح الستة المذلقة التي هي في حيّزين: حيز الفاء والآخر حيّز اللام وجعلها في التأليف الحرف الثالث للفاء والباء وهي آخر الحروف من الحيّز الأوّل وهذا الحيّز شفوي"[71] ويريد الخليل أنَّ الميم تأتي في ترتيبها بعد (ف، ب، م) من الشفة.

ولم يزد ابن عصفور في تحديد مخرجها على أنْ جعلها مشتركة فيه مع (الباء والواو)[72] ولقد مضى معنا كثير من الصفات التي يتميز بها صوت الميم وصوت النون ولاسيّما تحوّل النون إليه في مثل (عنبر) واشتراكهما في الغنة لجريان الصوت معهما في الخياشيم.

تأتي الميم زائدة في أبنية كلام العرب، وعدَّ اللغويون زيادتها في :صلدم وحلقوم، بلعوم، برعم...الخ. ومذهب القائلين بزيادة الميم في مثل هذه الأبنية أنَّ أصولها هي: صلد، حلق، برع، بلع.

قال ابن فارس: "فما جاء منحوتاً في كلام العرب في الرباعي أوله باء: البلعوم مجرى الطعام في الحلق، وقد يحذف الواو فيقال بلعم...وغير مشكل ان هذا مأخوذ من (بلع) الاّ أنّه زيد عليه ما زيد لجنس من المبالغة في معناه"[73] وذهب الدكتور إبراهيم أنيس "إلى أن هذه الميم هي من آثار اللغات السامية القديمة وهي علامة التنوين في الحميرية القديمة"[74].

والمعروف أن الباء والميم في بعض اللغات السامية الأخرى كما في الآرامية والعبرية تدلان على الجمع وقد مضى مثال ذلك. ومن الغريب أنَّ سيبويه يذهب في ميم (مفاعلة إلى أنها) عوض عن ألف (فاعلته)[75].

ولم يجد ابن جنّي المبرر في مذهب سيبويه ما يشير إلى البدلية أو العوضية بين الميم والألف، لأنه رأى أنَّ ألف (فاعل- مفاعلة) هي نفسها ثابتة في الفعل ومصدره قال" "أنَّ ألف فاعلت موجودة في المفاعلة، فكيف يعوض من حرف هو موجود غير معدوم"[76] وهو ردّ صحيح، ولو كان مذهب سيبويه أنها بدل من (ياء المضارعة) لكان أقرب إلى القبول، ذلك أنّها تقع موقع الياء في مثل (يحارب) و(محارب) و(يستوفي، مستوفي) في أسماء الفاعلين والمفعولين "وفاعل بفاعل مفاعلة" في المصدر.

ويقع في الميم إبدال فتبدل من اللام كما في لغة حمير التي يرد فيها قول الرسول ﷺ "ليس من امبر امصيام في امسفر" كما تبدل الباء بها في لغة مازن بني شيبان فهم يقولون (باسبك) ويريدون (ما اسمك) وهذه التبدلات الصوتية في الميم جارية معظمها مع أخواتها (الحروف المذلقة) كما هو واضح.

copy from www.aladab.zu.edu.ly

5- الباء:

صوت مجهور، مخرجه من بين الشفتين[77] ولعلَّه من أوائل هذه المجموعة نشأةً في لغة الإنسان الأولى. لشدة صوت الباء كان أحد حروف القلقلة التي يجمعها قولك "جد قطب" وهي أصوات تحدث ضغطاً على مخارجها فلا يثبت عضو الجهاز فيتحرك ويسمع صوتاً لاحقاً لصوت الحرف الأصلي وهو –أيضاً- من مجموعة الحروف الشديدة التي يجمعها قولك: "أجدت طبقك"[78].

تتميز الباء من بين حروف الشفة –خاصة- والحروف المذلقة عامة أنها "لا يدغم فيها إلا اللام من بين الصوات العربية"[79].

وصفها ابن جنّي بأنها غليظة وهو يفسّر بعض المواد قائلاً في كلمة (بحث) "فالباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض، والحاء تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب، ونحوهما إذا غادرت الأرض، والثاء للنفث والبث للتراب"[80] ولعلّ ابن جنّي قد أحس بأن شدة الصوت الباء لها تأثير في الدلالة في تأليف المادة وهذا الجانب في مصاقبة الأصوات للمعاني من أجل الأبحاث التي طرقها ابن جنّي في كتبه الخصائص وسر الصناعة والمصنّف.

لقد درج الباحثون الأوربيون حرف الباء (B) في مجموعة الأصوات الانفجارية وقربوا منه صوت (الباء- P) الذي تخلو منه العربية وبعض الساميات إلا أن صوت الباء (B) لم يخل من صفته الشدة التي سبق إليها الباحثون العرب فلاحظ الباحثون الغربيون أثره وأثر مجموعة حروف الشدة (القلقلة) على الأصوات الأنفية من تغيرات صوتية، يقول فندريس "فنحن نعرف في بعض اللغات في (V) ولامات (L) وراءات (R) أنفية ولكن عادة يحتفظ بمصطلح الأنفية للانفجارات المجهورة المصحوبة بأنواع من الرنين الأنفي فعندما يبقى حجاب الحنك هابطاً في أثناء انفجار الباء B أو الدال D أو الجيم G ترانا نحصل على الأنفيات (م- M) و(ن- N) والنون المغنة (ن- n) وتكتب بالفرنسية (gn) هذه الأصوات اللغوية يمكن إطالتها ولكن الهواء في هذه الحالة لا يخرج إلا من الأنف بالطبع لما كان الانفجار الحنكي يمنع من مرور الهواء"[81] هذه الصفات التي يتميز بها صوت الباء جعلت تأثيره في سائر أصوات اللغة واضحاً من غير أن يتأثر بها ولقد سبق أن أشرنا إلى أن مثل (عنبر) و(شنباء) تصبح (عمبر) و(شمباء) بإبدال النون ميماً إنما كان بتأثير صوت الباء بعد النون.

وللباء في العربية استعمالات كثيرة ذكرها دارسو النحو العربي ورصدت المعجمات كثيراً منها كباء الاستعانة والالصاق والتي بمعنى (في) و(عن) وغيرها وعلى الرغم من أنه لم يكن من حروف الزيادة (سالتموينها) إلا أنه ورد مزيداً في الألفاظ ذكرها المعجميون، ودارسو اللغة كالألفاظ "بحظل" و(بلذم) و(بركل) وغيرها وحجة اللغويين في مثل هذه الألفاظ أننا لو جردناها من الباء بقي مدلولها واحداً[82]. يتعامل الباء في تبديلاته مع أصوات الذلاقة كالميم كثيراً[83] وهما صوتان شفويان إلا

copy from www.alqalb.7.edu.ly

أننا نراه مع سائر الحروف ملتزماً بصوته الشديد المؤثر من غير أن يتأثر وهذه صفة ينفرد بها كما أسلفنا ولذا لا يسمح للميم أن تدغم فيه وإن كان تعليل ذلك يرجع إلى الغنة في الميم في حين يدغم فيها في نحو قولنا: (اصطحب مطرا) ولا يدغم في (أكرم بكرا).

6- الفاء:

صوت مهموس، ولعله الصوت الوحيد من بين أصوات الذلاقة الذي يحمل هذه الصفة، والأصوات المهموسة يجعلها قولنا: "حثه شخص فسكت"[84] ومعنى المهموسة إنها حروف أضعف الاعتماد في موضعها فجرى النفس معها فأخفاها والهمس: الصوت الخفي فلذلك سُميت مهموسة. "وهو من الأصوات الاحتكاكية ويقرب منه صوت (V) في اللغات الأخرى[85] ويبدو أنَّ هذه السهولة والليونة في صوت الفاء كان يصحبها ليونة وفتور في الدلالة، وهذه الصفة للحرف أدركها إمام العربية في القرن الرابع الهجري أبو الفتح ابن جنّي حين وقف على تأثيرها في بضعة حروف عند تركيبها معها، فوجد أن (الفاء) إذا مازجت (الذال والتاء والطاء والراء والنون) متقدمة عليها أم متأخرة تحمل معنى الوهن والضعف وأورد ألفاظاً منها:

الألف: الشيخ الضعيف والتالف، الطليف والظليف: المجاز وليست له عصمة الثمين، الطنف: لما أشرف خارجاً من البناء وهو إلى الضعف الرديف لأنه ليست له قوة الراكب الأساس والأصل.

والنطف، والدنف، والتنوفة، الترقة، والطرف، والفرد، والفارط، والفرتنى والفرات، والفتور، والرفت، والطفل، التفل، والدفلى، والدفر، والفلقة، والفطر وغيرها[86] من المفردات فإنها جميعاً تؤوُل في الدلالة إلى الضعف والفتور والوهن وان كان ابن جنّي قد اشتطَ في تفسير بعض هذه المفردات إلى الغرابة أحياناً. وعلى أي حال فأن مقدار ما يصلح من تفسير ابن جنّي على هذه المفردات وغيرها يعطينا دلالة كافية لتأثير صوت الفاء في المعنى في تأليف الكلم.

يتعامل الفاء في التبدلات الصوتية مع بعض الحروف، ولقد سبقت الإشارة إلى تعاقبه مع الثاء في مثل (ثم وفم) و(ثوم وفوم) و(أثافي وأثاثي)[87] ويبدل أحياناً من الكاف كما في قول العرب (حسيفه وحسيكه) للغلّ والعدواة، و(السلفان والسلكان) لأولاد الحجل[88].

ممّا تقدم في تضاعيف هذا البحث يمكن أن نلاحظ أن أصوات الذلاقة في العربية، أصوات ذات قيمة صوتية مركزية لها الصدارة في عظم كلام العرب واللسان السامي عموماً ولقد ترجح عندي أنها من الأصوات المناسبة.

copy from www.aladab.zu.edu.ly

الهوامش

(1) تهذيب اللغة، الأزهري، تحقيق عبد السلام محمد هارون وآخرين، ط1، القاهرة، 1967م: مادّة (قذل).
(2) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده الأندلسي، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ط1، القاهرة، 1958م: مادّة (قذل).
(3) أسرار العربية، أبو البركات الأنباريّ، تحقيق محمد بهجة البيطار، ط1، مطبعة الترقي ـدمشق، 1957م: 422.
(4) جمهرة اللغة، ابن دريد، تحقيق كرنكو، ط1، حيدر آباد، الهند، 1351هـ: 1/6-7.
(5) دراسات في فقه اللّغة، د. صبحي الصالح، ط2، بيروت 1970: 383- 384.
(6) أسرار العربية: 423.
(7) لسان العرب، ابن منظور، طبعة بولاق ـمصر، 1307هـ؛ مادّة (ذلق).
(8) العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، ط1، بيروت ـلبنان، 1988م: 59/1.
(9) العين: 58/1- 59، وأنظر لسان العرب: 198/1.
(10) نشأة اللغة عند الإنسان والطفل، د. عليّ عبد الواحد وافي ط1، مصر، 1382هـ: 147- 149.
(11) المصدر السابق:151.
(12) المصدر نفسه: 154- 155.
(13) اللغة العبرية، د. رمضان عبد التوّاب، ط1، القاهرة، 1975م: 25- 29.
(14) تأريخ اللغات السامية، إسرائيل ولفنسون، ط1، القاهرة، 1929م: 175.
(15) اللغة العبرية: 16- 17.
(16) اللغة العبرية: 16.
(17) القلب والإبدال، ابن السكّيت (ضمن الكنز اللغوي لهفنر)، ط1، بيروت، 1903م: 3-4.
(18) الخصائص، تحقيق محمد عليّ النّجار، ط1، القاهرة، 1952م: 82/2.
(19) المصدر السابق: 84/2.
(20) القلب والإبدال: 11- 13.
(21) الخصائص: 148/2.
(22) المصدر السابق: 149/2.
(23) القلب والإبدال: 18- 21.
(24) الخصائص: 149/2.
(25) القلب والإبدال: 50- 53.
(26) المزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم وآخرين، ط1، القاهرة، 1958م: 465/1، والخصائص: 84/2.
(27) القلب والإبدال: 36.

copy from www.aladab.azu.edu.ly

(28) المصدر السابق: 46.
(29) الخصائص: 149/2.
(30) المزهر: 277/2.
(31) مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط1، القاهرة، 1371هـ: 501/1.
(32) أنظر: الخصائص: 149/2- 153.
(33) المقرّب، ابن عصفور الإشبيلي، تحقيق د. أحمد عبد الستار الجواري، ود. عبد الله الجبوري، ط1، بغداد، 1975م: 5/2.
(34) اللغة (فندريس)، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، ط1، القاهرة، 1950م: 55.
(35) المقرب: 7/2.
(36) تهذيب الصحاح، الزنجاني، تحقيق عبد السلام محمد هارون وأحمد عبد الغفور عطّار: 729/2.
(37) أسرار العربية: 424.
(38) تهذيب اللغة: 561/15.
(39) المقرّب: 14/2.
(40) الكتاب، سيبويه، طبعة بولاق: 416/2.
(41) تهذيب اللغة: 561/15.
(42) الكتاب: 416/2- 417.
(43) الخصائص: 96/3- 97.
(44) المصدر السابق: 97/3.
(45) المصدر نفسه: 94/1.
(46) المصدر نفسه: 138/2.
(47) النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، تصحيح علي محمد الضبّاع، مطبعة مصطفى البابي الحلبي: 419/1.
(48) الخصائص: 324/2- 325.
(49) المصدر السابق: 3/ 20.
(50) المصدر نفسه: 240/3.
(51) المصدر نفسه: 240/3.
(52) المصدر نفسه: 5/2.
(53) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، القاهرة، 1913م: 130/2.
(54) المقرّب: 7/2- 8.
(55) اللغة (فندريس): 70- 71.
(56) المصدر السابق: 52- 53.
(57) المصدر نفسه: 52- 53.

copy from www.aladab.7apru.edu.ly

(58) المصدر نفسه: 53.
(59) البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط1، القاهرة، 1948م: 34/1.
(60) المصدر السابق: 35/1.
(61) أسرار العربية: 425.
(62) المقرّب: 5/2.
(63) الممتع في التصريف، ابن عصفور، تحقيق فخر الدين قباوة، ط1، حلب، 1970م: 693/2.
(64) الكتاب: 417/2.
(65) المقرّب: 13/2.
(66) اللغة (فندريس): 52.
(67) المصدر السابق: 53.
(68) البيان والتبيين: 35/1.
(69) تهذيب اللغة: 404/15.
(70) لسان العرب: 268/14.
(71) تهذيب اللغة: 616/15.
(72) المقرّب: 5/2-6.
(73) مقاييس اللغة: 74/1.
(74) من أسرار اللغة، د. إبراهيم أنيس، ط1، القاهرة، 1966م: 74.
(75) الكتاب: 234/2.
(76) الخصائص: 304/2.
(77) المقرّب: 5/2.
(78) أسرار العربية: 422.
(79) المقرّب: 14/2.
(80) الخصائص: 163/2.
(81) اللغة (فندريس): 55.
(82) مقاييس اللغة: 332/1- 334.
(83) القلب والإبدال: 10.
(84) أسرار العربية: 422.
(85) اللغة (فندريس): 51.
(86) الخصائص: 166/2-167.
(87) المزهر: 65/1.
(88) القلب: 36.

copy from www.aladab Zu.edu.ly